الانثروبولوجيا والتاريخ والاستشراق

رضوان السيّد

ليست هذه المرة الأولى التي يتدخل فيها زميلنا الدكتور أبو بكر باقادر للمؤازرة في الملفّات التي تصدرها مجلة **الاجتهاد**. فقد عاوننا من قبل في إعداد ملفّ «الأسرة والمجتمع والدولة»(*)، وها هو يبادر لإمدادنا بأكثر موادّ هذا العدد المزدوج من ملفّ «الاستشراق والأنثروبولوجيا». وكان الأستاذ باقادر قد نبَّه قراء المجلة قبل سنواتٍ إلى الأهمية المتزايدة للمناهج الأنثروبولوجية في دراسات القضايا العربية والإسلامية ماضياً وحاضراً(**). ووجهة نظر الزميل الكريم أنّ هذه المناهج تنتج في أسوأ الأحوال بحوثاً يكون علينا أن نطّلع عليها من باب: إعرف عدوّك! لكنها في أحوالٍ وسياقاتٍ أُخرى يمكن أن تشكّل فرصةً أو بديلاً للخروج من الأيديولوجيات والأنماط الموروثة في الرؤى الغربية للشرق. ولا يعني ذلك أنّ أساتذة الأنثروبولوجيا العرب في جيلهم السابق، والجيل الحالي، ليسوا على وعيٍ بالترابط العميق بين الأنثروبولوجيا والاستعمار، بما يزيد بدرجاتٍ على ارتباط أو تبعية المستشرقين. بل إنما يذهبون إلى اعتبار الأنثروبولوجيا بديلاً لأنها في نظرهم «علمية» أو «ميدانية» أكثر، ثم لأنها ترتبط إلى حدٍ ما بالسوسيولوجيا الوضعية التي لا تسمحُ بالتجذير الأيديولوجي أو بتخليد

(*) الأسرة والمجتمع والدولة. السنة العاشرة. العدد 39/ 40. 1988.

(**) أبو بكر باقادر: الإسلام والخطاب الأنثروبولوجي المعاصر، السنة 5، ع 20، 1993، ص 177.

الصُوَر النمطية المتوارثة!

والواقع أنّ هذين العددين من مجلة **الاجتهاد** يرميان **أولاً** إلى عرض بعض نتاجات المنهج الأنثروبولوجي في رؤية مشكلاتنا المعاصرة. وفي هذا الصدد فنحن لا نعتبر هذا المنهج في الرؤية أفضل من التاريخانية الاستشراقية أو أسوأ، بل إننا إنما نضعُهُ على محكّ الاختبار، في علميته من جهة، وفي قدرته على الكشف والفهم والتفسير من جهةٍ ثانية. ونرى أنّ الأمرين (العلمية والملاءمة) إنما يستندان إلى تفحص الأطروحات التأسيسية لهذا النهج في ضوء قراءاتٍ أخرى (غير استشراقية) للتاريخ، وفي ضوء الأعمال الجديدة والمناهج الجديدة لسوسيولوجا الفكر، وسوسيولوجيا الحركات الدينية والثقافية والسياسية. وبين التاريخ والسوسيولوجيا لا يشعُرُ الأنثروبولوجيون بالأمان ولا بالطمأنينة عكس ما يعتقد زميلنا الدكتور أبو بكر باقادر (قارن بالمقابلة مع طلال أسد في هذا العدد). إذ همُّ الأنثروبولوجي البحث عن دثائر الماضي المحدِّدة للشخصية أو للقوام «الأنثروبولوجي» للجماعة في الماضي والحاضر. صحيح أنّ العوامل أو العناصر الثابتة أو الباقية هذه يمكن أن تتحول (بل إنها تحولت) إلى «رموز»؛ لكن رأس المال الرمزي هذا ما يزال عظيم التأثير، بمعنى أنّ هناك تجوهُراً بمعنىً ما للماضي، يعلِّلُ الوصولُ للكشف عنه استمرار «البنية العميقة» رغم المتغيرات الكبيرة على السطح. هكذا ـ وبدون تبسيط ـ تعتبر تياراتٌ رئيسيةٌ في الأنثروبولوجيا الثقافية أنها قطعت مع الحتميات التاريخية، ومع التطورية الحرفية أو الميكانيكية.

وفي الوقت نفسه تعتقد أنها بتجاوزها للظواهر والمتغيرات العابرة ضربت سِحْر الظواهر والإحصائيات والميدانيات السوسيولوجية. وهذا ظاهر في دراسة غيلنر في هذا العدد للسلفية الجزائرية، التي يعتبر أنها حلّت محلّ التصوف والعرفانيات السحرية؛ ذلك أنّ السلفية الطهورية ـ في نظره ـ هي جوهر الإسلام أو طابعه الأصيل. لكنْ ماذا نفعل بالظواهر التاريخية المستمرة منذ ألف عام، والتي تعايش خلالها التصوف مع السلفية ـ مع غلبةٍ

للتصوف ـ في بيئاتٍ إسلاميةٍ كثيرةٍ في قلب العالم الإسلامي وعلى أطرافه. ثم كيف نفسّر الصعودَ الظاهرَ للتصوف في العقدين الأخيرين وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي، وبالتوازي مع السلفية أو الطهورية أو الإحيائية، أو أياً تكن تسمية الأنثروبولوجيين لظواهر الصحوة الإسلامية. ولا يعني هذا أنّ المنهج الأنثروبولوجي باطل أو عديم الفائدة، بل ما نعنيه أنّ النسبية العلمية، وتأمُّل المسائل كلّها بشموليةٍ، كفيلان بأن يخرجا بنا من وحدانية النظرة إلى منهجٍ متكاملٍ يفيد من سائر منجزات التقدم في مجال مناهج الإنسانيات والاجتماعيات.

أما **الهدف الثاني** من هذا العدد المزدوج فهو مراقبة هذا الانتقال الغربي في دراسة القضايا الماضية والحاضرة في العالمين العربي والإسلامي من التاريخانية والاستشراق إلى الأنثروبولوجيات والقراءات الثقافية والحضارية. والواقع أن هذا النهج في الفهم والتفسير لا يقتصر على المجال الحضاري الإسلامي؛ بل جرى استخدامه ـ بخلاف الاستشراق ـ في تفسير ظواهر كثيرة أخرى غير إسلامية؛ لكنها أيضاً غير غربية بالمعنى المتداوَل للغرب. فهناك ذلك الثَوَران للإثنيات واللسانيات والأديان والمذاهب، والذي فُهم دائماً من جانب الدارسين الغربيين باعتباره عودةً إلى الأصل وإلى الأصالة. لكن الفرق بين التأمل الأنثروبولوجي للشعوب الصينية أو الهندية مَثَلاً، والتَأمل نفسه لظواهر ومتغيرات العالم الإسلامي، أنّ الأنثروبولوجيا في الصين تعتبر أنها تُسهم في فهم أفضل للصينيين، بينما هي تقول عندنا إنها تحِلُّ محلّ علم آخَرَ صار عاجزاً عن الإحاطة والتفسير هو الاستشراق الذي لم يَعُدْ علماً! ومع الاعتراف بالفروق الفعلية بين المقاربتين وأدواتهما، فالمعروف أن الطرفين تعاوَنا طوالَ القرنين الماضيين، وإن بقيت الغلبة للاستشراق. ثم إنّ هذا الميراث الكتابيَّ الهائل عن الشرق والإسلام والعرب ـ والذي يحاول الأنثروبولوجيون استعادته اليوم ـ تختلط فيه التاريخانية بأدب الرحلات والإثنولوجيا بالأنثروبولوجيا، والآثار بالأيديولوجيا.. إلخ، فلا يسهُلُ الهربُ من التاريخ ولا من التاريخانية. وقد راقبتُ نقد غيلنر لكليفورد غيرتز، ثم نقد إدوار سعيد لكليهما. فوجدتُ أن الواحدَ منهم يتجلبب دائماً

ولقد سعينا في مراجعات الكتب إلى رسم خارطة واسعة وكبيرة لأهم وأبرز الاتجاهات البحثية التي يقوم بها بعض الدارسين الغربيين عن المجتمع والثقافة في العالم الإسلام وهي كما هو واضح رحبة واسعة تطال مجالاتٍ وآفاقاً عديدة، معظمها للأسف الشديد لم تلق الاهتمام المطلوب في تراثنا المنشور المعاصر رغم أهميتها، بل ورغم ما يعرفه الغرب عنها!

وقد يتساءل القارىء الكريم: لماذا الاهتمام الغربي بدراستنا وبهذا الزخم والقوة والتنوع؟ ولعلنا نقول معه ربما كان هذا شأن الغرب، لكن دون شك كان من الأولى والأجدر لو قامت بعض المؤسسات والمراكز البحثية عندنا بأمثال هذه الدراسات حتى نعرف ما يجري في مجتمعاتنا بشكل أعمق وأفضل. كذلك يمكننا أن نبرر قيامنا بترجمة وتقديم هذه البحوث للقراء العرب والمسلمين عامةً بشعورنا بضرورة معرفتنا ودرايتنا وربما انتقادنا وتمحيصنا للأطروحات والأفكار والمناهج العلمية المستخدمة لدراستنا ومعرفة أحوالنا، فهذه المعلومات يعرفها الغربيون لأنها مصادرهم وكتبهم، لكننا نحن في أمس الحاجة لمعرفتها حتى نعرف ماذا يقال عنا وكيف يفكر في أمورنا وما هي «الأخطاء» والأفكار التي لا نوافق عليها والتي تروج بينهم علناً فنقوم بتصحيحها أو على الأقل بتمحيصها.

أرجو أن تكون مادة هذا العدد حافزاً ودافعاً لظهور بحوث ودراسات منهجية أقوى مما نُشر تتناول أوضاعنا الراهنة يمكننا أن نتداولها فيما بيننا أو نسهم بها في إطار ما يتشكل كحقول علمية أو معرفية في دراستنا وإنا نستسمح القارىء الكريم عما قد لا يروق له من آراء أو أفكار شطحات قال بها بعضهم فهي آراؤهم رأينا أن من المستحسن أن نطّلع عليها وندرسها لا أن نرفضها دون أن نطلع عليها.

هناك تحول منهجيٌّ كبير في رؤية العالم أو رؤاه، تحوّل من التاريخي إلى الثقافي، وفيما يتصل بنا هو تحولٌ من الاستشراق التاريخاني إلى الانثروبولوجيا: هل المنهج الانثروبولوجي أفضل أو أنسب لقراءة الماضي والحاضر؟ وما هي مآلات الاستشراق والانثروبولوجيا معاً؟ هذا ما يحاول هذا العدد والعدد اللاحق استكشاف آفاقه.